التصوف
دراسة في المفهوم الديني
والممارسات الاجتماعية

د. حمدان حمود الهاجري
وزارة الأوقاف الكويتية
Shark.q.8@hotmail.com

مقدمة

نحمدك اللهم أن وفقتنا سواء السبيل، فأنت نعم المولى ونعم النصير، ونصلي ونسلم على حبيبك الأعظم المبعوث رحمة للعالمين، ومنقذاً للإنسانية، وهادياً للبشرية سيدنا ﷺ القدوة المثلى والأسوة الحسنة، وعلى آله وأصحابه الذين زكوا أنفسهم فأفلحوا، ونصحوا إخوانهم فنفعوا ؛ اللهم أكرمنا بكرامتهم، ووفقنا لهديهم، وألحقنا بهم، واجمعنا معهم تحت لواء سيدنا محمد ﷺ، فإنك أكرم مسؤول وخير مأمول.

وبعد: فلقد مُني الإسلام منذ انبثاق فجره بخصوم ألداء، حاولوا تهديم أركانه، وتقويض بنيانه، بشتى الأساليب ومختلف الوسائل. ونحن اليوم نعاني موجات إلحادية، وتيارات إباحية، ترد إلينا من الشرق والغرب، تضلل شبابنا، وتفسد أجيالنا، وتهدد مستقبلنا الفكري العقائدي بمصير أسود قاتم، وتنذر أمتنا بتدهور خطير، وشر مستطير، ولا يسعنا في هذا الجو المائج بالصراع الفكري، إلا أن نعتصم بحبل الله المتين تأسيا بقوله تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا.. الايات).

ولقد تميز الفكر الإسلامي عن غيره من صور الفكر الإنساني بمرجعية الوحي الذي ختمت به الرسالات السماوية، فكان الوحي المتمثل بالقرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة هو المصدر الأصيل للإنجازات الفكرية الإسلامية، وإن ظهور الصوفية كانت نتيجة لتقليد بعض المناهج في الديانات الأخرى وهى اقرب ما تكون إلى التشيع في ديانة الإسلام.

ويهدف البحث إلى استعراض حقيقة التصوف في مفهومه الديني والعقدي ، بالإضافة إلى الممارسات الاجتماعية لبعض أتباعه في العصر الحالي وذلك ما سيتم توضيحه فيما يلي:

مفهوم التَّصوف في اللغة:

يطلق علماء اللغة كلمة صوف في معاجم اللغة تحت مادة صوف على عدة معان، منها إطلاق كلمة صوف على الصوف المعروف من شعر الحيوانات، ومنها صوفان وصوفانة، وتطلق على بقلة زغباء قصيرة. وقد أطلقت كلمة صوف في بعض دلالتها بمعنى الميل، فيقال صاف السهم عن الهدف بمعنى مال عنه، وصاف عن الشر أي عدل عنه.

وردّ القشيري(١) على معظم الأقوال في تعريف الصوفية فقال في رسالته:"فأما قول من قال:إنه من الصوف، ولهذا يقال:تصوّف إذا لبس الصوف كما يقال:تقمص إذا لبس القميص، فذلك وجه. ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف. ومن قال:إنهم منسوبون إلى صفة مسجد رسول الله ﷺ، فالنسبة إلى الصفة لا تجيء على نحو الصوفي. ومن قال:إنه مشتق من الصفاء، فاشتقاق الصوفي من الصفاء بعيد في مقتضى اللغة. ومن قال:إنه مشتق من الصف، فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم فالمعنى صحيح، ولكن اللغة لا تقتضي هذه النسبة إلى الصف".(٢)

والصواب نسبة التّصوف إلى الصوف، وهو الأقرب إلى الاشتقاق اللغوي، كما أنه الأقرب إلى ذوق الصوفية وحالهم في تمسكهم بلباس الصوف، وقد ذهب إلى تقرير هذا القول كثير من العلماء في نسبتهم لهذه الطائفة التي لم توجد في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، ولا في زمن الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان؛ إذ لو وجدت في هذه الأزمنة

(١) هو أبو القاسم عبد الكريم القشيري النيسابوري الشافعي قيل فيه:هو الإمام مطلقا، الفقيه، المتكلم، الأصولي، المفسر، الأديب..لسان عصره، وسر الله في خلقه، مدار الحقيقة، وعين السعادة، وقطب السيادة ، من جمع بين الشريعة والحقيقة(مقدمة كتاب الرسالة القشيرية ص ١٥)، وقال عنه أبو الحسن الباخرزي: لو ارتبط إبليس في مجلسه لتاب(دمية القصر)، توفي سنة ٤٦٥ هـ.

(٢) أبو القاسم القشيري، الرسالة القشيرية في علم التصوف، ج١، القاهرة، دار الشعب، ١٩٨٩، ص٥٥٠.

وعرفها الناس وعرفوا مسالكها لاشتهرت تسميتها ولما حصل لبس أو خلاف في حقيقتها واتجاهاتها بين المتأخرين.

مفهوم التصوف في الاصطلاح:

اختلفت الأقوال في مفهوم التصوف بين مؤيد ومعارض، يعرض لها البحث كما يلي:

التصوف من وجهة نظر المؤيدين: قال القاضي شيخ الإسلام زكريا الأنصاري رحمه الله تعالى: (التصوف علم تعرف به أحوال تزكية النفوس، وتصفية الأخلاق وتعمير الظاهر والباطن لنيل السعادة الأبدية(٣)

ويقول الشيخ أحمد زروق رحمه الله: (التصوف علم قصد لإصلاح القلوب، وإفرادها لله تعالى عما سواه. والفقه لإصلاح العمل، وحفظ النظام، وظهور الحكمة بالأحكام. والأصول "علم التوحيد" لتحقيق المقدمات بالبراهين، وتحلية الإيمان بالإيقان، كالطب لحفظ الأبدان، وكالنحو لإصلاح اللسان إلى غير ذلك(١).

وقال أبو الحسن الشاذلي رحمه الله: (التصوف تدريب النفس على العبودية، وردها لأحكام الربوبية)(٢) .

وقال ابن عجيبة رحمه الله: (التصوف: هو علم يعرف به كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك، وتصفية البواطن من الرذائل، وتحليتها بأنواع الفضائل، وأوله علم، ووسطه عمل، وآخره موهبة)(٣)

---

(٣) المرجع السابق، ص٧.

(١) أحمد زروق الفاسي، قواعد التصوف، قاعدة ١٣، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ٢٠٠٥، ص ٢٦

(٢) حامد صقر، نور التحقيق في صحة أعمال الطريق، القاهرة، دار التأليف، ١٩٧٠م ، ص٩٣.

(٣) أحمد بن عجيبة الحسني، معراج التشوف إلى حقائق التصوف، الدار البيضاء ، مركز التراث الثقافي المغربي، د.ت. ص ص٢٥-٢٦.

وقال صاحب "كشف الظنون": (هو علم يعرف به كيفية ترقي أهل الكمال من النوع الإنساني في مدارج سعاداتهم) إلى أن قال: علم التصوف علمٌ ليس يعرفه إلا أخو فطنةٍ بالحق معروفُ وليس يعرفه مَنْ ليس يشهده وكيف يشهد ضوءَ الشمسِ مكفوفُ(٤)

وقال الشيخ زروق في قواعد التصوف: (وقد حُدَّ التصوف ورسم وفسر بوجوه تبلغ نحو الألفين، مرجع كلها لصدق التوجه إلى الله تعالى، وإنما هي وجوه فيه) (٥) .

وبعد العرض السابق يتضح أن حقيقة التصوف عند المؤيدين تعني: تصفية القلب من أوضار المادة، وقوامه صلة الإنسان بالخالق العظيم، فالصوفي من صفا قلبه لله، وصفتْ لله معاملته، فصفت له من الله تعالى كرامته.

رد المعارضين:

لمّا كانت تلك التعريفات أموراً اجتهادية واستحسانات وتقريباً لهذا المذهب، فإنّك تجد أنّه يرد عليها اعتراضات كثيرة، وفى بعضها أخطاء واضحة. ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ردود على بعض تلك التعريفات، فقد ذَّكر أنّه إذا كانت النسبة إلى أهل الصفة –وهو خطأ تاريخي– فإنه يقال صُفِّي، وأما إذا كانت إلى الصف المقدم بين يدي الله تعالى فإنه يقال صَفِّي، وأما إذا كانت نسبة إلى الصفوة من خلق الله فإنه يقال صفوي، وأما إذا كانت النسبة إلى ذلك الرجل الجاهلي فإنه لا أحد من المتصوفة يرضى أن ينسب إلى قبيلة جاهلية قبل الإسلام، إضافة إلى أنه لم تعرف هذه التسمية بين الصحابة ولا كانت هذه القبيلة مشهورة أيضاً.

(٤) حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، تحقيق: محمد شرف الدين، ج١، بيروت، دار إحياء التراث العربي ، د.ت، ص٤١٣ ـ ٤١٤.

(٥) أحمد زروق الفاسي، قواعد التصوف، المرجع السابق، ص٢١.

وقد رجّح شيخ الإسلام فيما يظهر من كلامه أن التّصوف نسبة إلى الصوف حيث قال: "وقيل وهو المعروف: أنه نسبة إلى لبس الصوف".

وقد روى أبو الشيخ الأصبهاني بإسناده عن محمد بن سيرين أنه بلغه أن قوما يفضلون لباس الصوف، فقال:إن قوما يتخيرون لباس الصوف يقولون إنهم يتشبهون بالمسيح بن مريم، وهدي نبينا أحب إلينا وكان ﷺ يلبس القطن وغيره، أو كلاما نحوا من هذا، ثم يقول بعد ذلك: هؤلاء نسبوا إلى اللبسة الظاهرة وهي لباس الصوف فقيل في أحدهم صوفي، وليس طريقهم مقيدا بلبس الصوف ولا هم أوجبوا ذلك ولا علقوا الأمر به لمن أضيفوا إليه لكونه ظاهر الحال، إلى أن قال:فهذا أصل التّصوف، ثم إنه بعد ذلك تشعب وتنوع.

وما رجّحه شيخ الإسلام ابن تيمية وابن خلدون وطائفة كبيرة من العلماء حق من أنها نسبة إلى الصوف، حيث كان شعار رهبان أهل الكتاب، الذين تأثر بهم الأوائل من الصوفية، وبالتالي فقد أبطل هؤلاء كل الاستدلالات والاشتقاقات الأخرى على مقتضى قواعد اللغة العربية، محمولة نسبة الصوفية أنفسهم إلى علي بن أبي طالب والحسن البصري وسفيان الثوري ﷺ جميعاً، وهي نسبة تفتقر إلى الدليل ويعوزها الحجة والبرهان.

نشأة التصوف:

التّصوف حركة دينية انتشرت في العالم الإسلامي في القرن الثالث الهجري كنزعات فردية تدعو إلى الزهد وشدة العبادة، كرد فعل مضاد للانغماس في الترف الحضاري. ثمّ تطوّرت تلك النزعات بعد ذلك، حتى صارت طرقا مُميّزة معروفة باسم الصوفية، ويتوخى المتصوفة تربية النفس والسمو بها، بغية الوصول إلى معرفة الله تعالى بالكشف والمشاهدة، لا عن طريق اتباع الوسائل الشرعية، ولذا جنحوا في المسار حتى تداخلت طريقتهم مع الفلسفات الوثنية:الهندية والفارسية واليونانية المختلفة. ويلاحظ أنّ هناك فروقاً جوهرية بين مفهومي الزهد والتّصوف أهمها:إنّ

الزهد مأمور به، والتّصوف جنوح عن طريق الحق الذي اختطه أهل السنة والجماعة.(١)

قال ابن خلدون في مقدمته: (وهذا العلم ـ يعني التصوف ـ من العلوم الشرعية الحادثة في الملّة ؛ وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومَن بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة، والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد في ما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق، والخلوة للعبادة، وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف. فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية) (٢)

ويقرر بذلك ابن خلدون في فقرته الأخيرة أن ظهور التصوف والصوفية كان نتيجة جنوح الناس إلى مخالطة الدنيا وأهلها في القرن الثاني للهجرة، فإن ذلك من شأنه أن يتخذ المقبلون على العبادة اسماً يميزهم عن عامة الناس الذين ألهتهم الحياة الدنيا الفانية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى:"أما لفظ الصوفية فإنه لم يكن مشهوراً في القرون الثلاثة، وإنما اشتهر التكلم به بعد ذلك، وقد نقل التكلم به عن غير واحد من الأئمة والشيوخ، كالإمام أحمد بن حنبل، وأبي سليمان الداراني وغيرهما. وقد روي عن سفيان الثوري أنه تكلم به، وبعضهم يذكر ذلك عن الحسن البصري". ولفظ التّصوف والصوفية لم يكن معروفا في صدر الإسلام وإنما هو محدث بعد ذلك أو دخيل على الإسلام من أمم أخرى. وذكر ابن تيمية

(١) محمد العبْده، طارق عبد الحليم، الصوفية نشأتها وتطورها ، لندن، دار الأرقم، ط٤، ٢٠٠١.

(٢) عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق عبدالله الدرويش، دمشق، دار يعرب، د.ت. ص ٣٢٩.

وسبقه ابن الجوزي وابن خلدون في هذا أن لفظ الصوفية لم يكن مشهورا في القرون الثلاثة الأولى.(٣)

ويذكر الرقب والشوبكي(٤) حقيقة وأصل التّصوف فيقرران أن التصوف علي الإطلاق ليس إسلامي النشأة، وأول ما ظهرت الصوفية في البصرة، وأول من ابتنى دويرة الصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد، وعبد الواحد من أصحاب الحسن، وكان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك ما لم يكن في سائر أهل الأمصار. واشتهر الفقه بالكوفة والتّصوف بالبصرة. من هنا فالتصوف إنما وفد علي البيئة الإسلامية مع ما وفد من عادات وتقاليد الأجناس الأخرى بعدما امتزجت واختلطت عقب الفتح الإسلامي. وعلى هذا الرأي بعض الملاحظات، فقد ينطبق هذا الرأي علي ذلك النوع من التّصوف، الذي قام على أساس من الغلو والانحراف الذي جاء به أصحاب وحدة الوجود والحلول والاتحاد، مع تظاهرهم بالانتساب إلى الإسلام وتقديسهم لنبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم، ولعلّ سبب هذا القول إنّما يعود إلي الواقع الذي اشتمل عليه مفهوم التّصوف. وقد يبدوا للناظر أنه يوجد لكل من القولين السابقين ما يبررهما في العقائد الصوفية، وأهل هذا القول يرجعون نشأة التّصوف إلي أنه فارسي، أو هندي أو يوناني، أو مسيحي، أو أنه مزيج من هذا كله، وعلي رأس هذا الفريق كثير من المستشرقين ومن غيرهم أيضاً .

والمطلع على الحركة الصوفية من أول نشأتها إلى حين ظهورها العلني على ذلك النحو يجد أن أساطين الفكر الصوفي جميعهم بلا استثناء في القرن الثالث والرابع الهجريين كانوا من الفرس، ولم يكن فيهم عربي قط، وعند مقابلة الدين الصوفي ستجد أن التّصوف هو الوجه الآخر للتشيع، وأن أهداف التّصوف والتشيع كانت واحدة تقريبًا، في السياسة والدين، والمهم هنا هو التذكير بأن التّصوف بلغ غايته وذروته

(٣) المرجع السابق، ص ٤٦٧.

(٤) صالح الرقب، ومحمود الشوبكي، دراسات في التصوف والفلسفة الإسلامية، غزة، الجامعة الإسلامية، ط٢، ٢٠٠٨، ص ص١٣-١٤.

من حيث العقيدة والتشريع في نهاية القرن الثالث حيث استطاع الحسين بن منصور الحلاج أن يظهر معتقده على الملأ، ولذلك أفتى علماء العصر بكفره وقتله، فقتل سنة ٣٠٩هـ وصلب على جسر بغداد، وسئل الصوفية الآخرون فلم يظهروا ما أظهر الحلاج.

وعلى الرغم من ذلك فإنّ الصوفية ظلت تواصل انتشارها في أرض فارس على الخصوص ثم العراق..وساعد على انتشارها في فارس أن أقام رجل يسمى أبو سعيد الميهني نظامًا خاصًا للخانات الذي أصبح فيما بعد مركزاً للصوفية، وقلده في ذلك عامة رجال التّصوف ومن هنا نشأت في منتصف القرن الرابع الهجري بدايات الطرق الصوفية التي سرعان ما انتشرت في العراق ومصر، والمغرب، وفي القرن السادس ظهرت مجموعة من رجال التّصوف كل منهم يزعم أنه من نسل الرسول ﷺ، واستطاع كل منهم أن يقيم له طريقة صوفية خاصة وأتباعًا مخصوصين، فظهر الرفاعي في العراق، والبدوي في مصر وأصله من المغرب ولا يعرف له أم ولا أب ولا أسرة ولا هو من المغرب، وكذلك الشاذلي في مصر وأصله كذلك من المغرب.

وتتابع ظهور الطرق الصوفية التي تفرعت من هذه الطرق، وفي القرون السادس والسابع والثامن.. بلغت الفتنة الصوفية أقصاها وأنشئت فرق خاصة بالدراويش وظهر المجاذيب وبنيت القباب على القبور في كل ناحية، وذلك بقيام الدولة الفاطمية في مصر وبسط سيطرتها على أقاليم واسعة من العالم الإسلامي، وبنائها للمزارات والقبور المفتراة كقبر الحسين بن علي رضي الله عنهما في مصر والسيدة زينب، وإقامتهم بعد ذلك الموالد والبدع والخرافات الكثيرة، وتأليههم في النهاية للحاكم بأمر الله الفاطمي؛ لقد بدأت الدعوة الفاطمية بالمغرب لتكون بديلًا للحكم العباسي السني، واستطاعت هذه الدولة تجنيد هذه الفرق الصوفية وغزو العالم الإسلامي بهذه الجيوش الباطنية التي كان لها أعظم الأثر بعد ذلك في تمكين الجيوش الصليبية من أرض الإسلام.

فرق الصوفية بعد ظهور اسم التصوف :

ينقسم الصوفية بعد ظهور اسم التصوف إلى ثلاث فرق، على النحو التالي :

١ـ صوفية أهل الحديث وهم خيارهم وأعلامهم، وهم الشيوخ الأكابر، الذين ذكرهم أبو عبدالرحمن السلمي في "طبقات الصوفية" وأبو القاسم القشيري في "الرسالة"، وكانوا على مذهب أهل السنة والجماعة، كالفضيل بن عياض والجنيد بن محمد وسهل بن عبدالله التستري وعمرو بن عثمان المكي وأبو عبدالله محمد بن خفيف الشيرازي وغيرهم، وكلام هؤلاء الأئمة عن عقائدهم موجود في كتب اعتقاد أهل السنة، وصنف بعضهم في عقيدة أهل السنة الكتب، ومخالفتهم للسلف في السلوك، حيث شددوا على أنفسهم في العبادة، مع تجويع النفس، وإهانتها، ولبس المرقعات.

٢ـ صوفية أهل الكلام، وهؤلاء دون صوفية أهل الحديث، وهؤلاء هم بعض المتأخرين من الصوفية ممن كان على طريقة بعض أهل الكلام في بعض فروع العقائد، ولم يكن فيهم أحد على مذهب الفلاسفة، كالحارث المحاسبي، وأبي الحسن ابن سالم وغيرهم، وهؤلاء أضافوا إلى سلوك الفرقة السابقة ـ صوفية أهل الحديث ـ المنهج الكلامي (الكلابي).

٣ـ صوفية الفلاسفة، وهم الملاحدة كابن عربي، وبسببهم ظهر التفلسف في المتصوفة المتأخرين، ويذكرون ثلاث عقائد أو أكثر(١)، ويدخل أبو طالب المكي والقشيري والغزالي، مع هؤلاء وإن كانوا دونهم في الزندقة، فأبو طالب والغزالي ذكرا ثلاث عقائد، ومعاني فلسفية، و القشيري ذكر المعاني الفلسفية، والتصوف بعد القرن الثامن الهجري يعتبر تفريعاً وشرحاً لمذهب ابن عربي الزنديق، وهؤلاء جمعوا بين

(١) أحمد ابن تيمية ، الصفدية ، ج١، تحقيق محمد رشاد سالم، القاهرة، مكتبة ابن تيمية، ٢٠٠٢، ص٢٦٧.

السلوك الصوفي والمنهج الكلامي والمناهج الفلسفية، وأخرجوها في قالب الكشف الصوفي. .

وقد انتشر في القرنين الخامس والسادس الهجريين نظام الطرق الصوفية وانتقلت من إيران إلى المشرق العربي فظهرت الرفاعية والقادرية في العراق، والأحمدية والشاذلية في مصر، ثم ظهرت بعد ذلك الدسوقية في مصر أيضاً، ثم تتابع ظهور الطرق الجديدة وكذلك الطرق المتفرعة من طرق قديمة حتى أصبحت الطرق تعد بالآلاف، وتعني الطريقة الصوفية النسبة إلى شيخ يزعم لنفسه الترقي في ميادين التصوف والوصول إلى رتبة الشيخ المربي. ويدعي لنفسه بالطبع رتبة صوفية من مراتب الأولياء عند الصوفية كالقطب والغوث والوتد والبدل.. الخ..(١)

ومن اهم نماذج الطرق الصوفية ما يلي(٢):

١. الطريقة التجانية: تنسب الطريقة التجانية إلى أحمد بن محمد بن المختار التجاني المولود سنة ١١٥٠هـ ١٧٣٧م ونسبته إلى بلدة تسمى (بني توجين) قرية من قرى البربر في المغرب، وينسب نفسه إلى الرسول ﷺ كما عادة كل من أسس طريقة صوفية. سار أولاً في الطريقة (الخلوتية).

ثم أسس طريقة لنفسه سماها باسمه بعد أن استقر في مدينة فاس بالمغرب وبنى فيها زاوية لمريديه. ويقول صاحب كشف الحجاب عن هذه الزاوية "كانت خربة متهدمة من ملك أولاد أفومي وكانت فيها كرمة كبيرة وكانت تلك الخربة مهيبة لا يقدر أحد أن يدخلها وحده، وقد بلغني على لسان الثقة أنه كان يسمع فيها بعض الأحيان كأن جماعة يذكرون فيها وكان يقصدها غالب مجاذيب فاس" أ.هـ. ولم يترك التجاني هذا أي علم ينتفع به ولكن جمع له تلميذ من تلاميذه يسمى علي

(١) عبد الرحمن عبد الخالق، الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، الكويت، مكتبة ابن تيمية، ط٣، ١٩٨٦، ص٢٤١.

(٢) المرجع السابق، ص ص٢٢٤. ٢٣٠.

حرازم كتاباً سماه (جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التجاني).. والكتاب كله في فضل سيده وكراماته وأخلاقه وشمائله وأذكاره وأحواله وطريقته، وإشاراته القرآنية وعلومه اللدنية..

٢. الطريقة الرفاعية: وتنسب الطريقة الرفاعية إلى أحمد الرفاعي بن سلطان علي، ويصل أتباعه نسبه إلى موسى الكاظم بن جعفر الصادق إلى علي بن أبي طالب. ولد أحمد الرفاعي في قرية (حسن) بالقرب من أم عبيدة بالعراق ٥١٢هـ وتوفي سنة ٥٧٨هـ ودفن في قرية أم عبيدة.

وقال في فضل اتباع طريقته: "أقامنا الله أئمة الدعوة بالنيابة عن نبيه ﷺ من اقتدى بنا مسلم، ومن أناب إلى الله بنا غنم، الحق يقال نحن أهل بيت ما أراد سلبنا سالب إلا سلب، ولا نبح علينا كلب إلا جرب، ولا هم على ضربنا ضارب إلا ضرب، ولا تعالى علينا حائط إلا وخرب"!![١] .

شطحات التصوف

إنّ التصوف بالمعنى الفلسفي جاء بعقائد وشطحات خاصة به، والفكر الصوفي خليط كامل من كل الفلسفات، والخرافات التي انتشرت في العالم قديماً وحديثاً. فليس هناك من كفر وزندقة وإلحاد إلا دخل إلى الفكر الصوفي وتلبس بالعقيدة الصوفية. فمن القول بوحدة الوجود، إلى القول بحلول ذات الله أو صفاته في المخلوقين، ومن القول بالعصمة للأولياء، إلى القول بأن الأولياء يديرون العالم، ويتحكمون في الكون، والزعم بالتلقي من الغيب. ومن القول بأنّ ﷺ هو قبة العالم، إلى القول بأنه هو المستوي على عرش الله تعالى عما يقولون[٢].

(١) أحمد الرفاعي، البرهان المؤيد، تحقيق: محمد عمر بحاوي، حلب ، المكتبة الادبية، ٢٠٠٩، ، ص٣١.

(٢) صالح الرقب، ومحمود الشوبكي، دراسات في التصوف والفلسفة الإسلامية، مرجع سابق، ص٢.

وشطحات الصوفية متنوعة: سلك بعضهم طريق تحضير الأرواح معتقداً بأن ذلك من التصوف، كما سلك آخرون طريق الشعوذة والدجل، وقد اهتموا ببناء الأضرحة وقبور الأولياء، وإنارتها وزيارتها، والتمسح بها، وكل ذلك من البدع التي ما أنزل الله بها من سلطان، وقال بعضهم بارتفاع التكاليف وإسقاطها عن الولي...الخ. (١).

ويعدّ البسطامي [١]أول واضع لمذهب الفناء في الفكر الصوفي في الإسلام، التي تعني فناء النفس الذاتية في الوجود الكلي (الله). مذهبة الذي بينه من خلال شطحاته عارضاً ما يحسه ويراه، مبتغياً من مجاهداته الوصول إلى الله عز وجل. ولهذا يعدّ ممثلاً "لمرحلة انتقال خطيرة بين التصوف غير الفلسفي والتصوف الفلسفي القائم على القول بوحدة الوجود". فالفناء الذي يدعو إليه البسطامي من خلال شطحاته "سبحاني ما أعظم شأني" و "ما في الجبة إلّا الله" و "إني أنا الله لا إله إلا أنا فادعوني"؛ هو الفناء عن النفس والتجرد عن الجس والوعي، فلا يغدو الصوفي يحس بشيء وهنا فقد يشعر بالوجود الرباني مُفنيا فيه ذاته ممهداً للبقاء في الله من خلال محو الرسوم وفناء الهوية وغيبة الآثار وعندئذ يتحد بالحق.

وظاهرة الشطح لدى البسطامي مرتبطة بتفكيره الذي بني بمقتضاه مذهبه في الفناء ونظريته في الاتحاد وطريقة توحيده لله. مما يدل على كون ظاهرة الشطح لم تتمذهب ولم تتخذ لها منهجاً إلى لدى البسطامي حيث بانت من خلالها قوته الروحية والخيالية التي أدت به إلى الشطح وأهمها الوجد أو الحب الإلهي، إذ إن شدة حبه لله تؤدي به إلى حالة السكر التي هي حالة لا شعورية – لا يقصد بها عدم الشعور، بل شعور من نوع خاص يغيب من خلاله الصوفي عن جميع صفاته، الحسية منها والعقلية، ويفقد على أثرها التمييز بين ذاته ووجوده وبين ذات الله

(١) المرجع السابق، ص٢.

(٢) نظلة احمد الجبوري، سلاطين المتصوفة في العشق والمعرفة، بغداد، دار المدى، ط١، ٢٠١٦، ص ص٥٠-٥١.

ووجوده، وعنها لم يشهد سوى الله سبحانه في ذاته – تدفع الصوفي الشاطح إلى النطق بلسان الحق بعد اجتيازه عقبة الاتحاد بينه بوصفه المحب وبين الله بوصفه المحبوب؛ حتى أصبح يقول بأن كل واحد منهما يقول للآخر أنا، فيقول البسطامي: "وفي قولي أنا والحق إنكار لتوحيد الحق" لأن الحق غدا مرآة نفس البسطامي قد فارق الخلق ووافق الحق لغيابه عن المحدودات والمحسوسات إلى موجدها الله. وما يعزز هذه المعرفة المقترنة بالحب الإلهي، والدالة عليه، وعلى وفق ما يصفها البسطامي نفسه؛ حينما كتب يحيى بن معاذ إليه، قائلاً: "سكرتُ من كثرة ما شربت من كأس محبته"، فأجابه أبو يزيد: "سكرتُ من كثرة ما شربتُ من الدرر وغيرك شرب بحور السماوات والأرض ".

ويقول البسطامي: "رفعني مرة فأقامني بين يديه وقال لي يا أبا يزيد إن خلقني يحبون أن يروك، فقلت: زيّنّي بوحدانيتك وألبسني أنانيتك وارفعني إلى أحديتك حتى إذا رآني خلقك قالوا رأيناك فتكون أنت ذاك ولا أكون أنا هنا".

وخلاصة القول أن مشايخ الصوفية وعلى رأسهم البسطامي كنموذج يوضح مدى عظم الشطحات التي تعرض لها هؤلاء المشايخ على حد زعمهم والتي يتهمونهم في ضوءها الكثير من علماء اهل السنة بالالحاد والكفر والزندقة والشرك ، ولعل ما سوقناه من أقوال البسطامي يعد بيانا واضحا لدرب سلكه بعض مشايخ الصوفية من بعده مثل الحلاج وابن عربي وغيرهم، الأمر الذي لا يدع مجالا للشك من أن التصوف وان كان في حقيقته مسلك ديني يهدف إلى الزهد والورع إلا أن ما نراه من أقوال وأفعال من أكابر الصوفية يجعلنا نقف حائرين بين مبادئ التصوف التي يزعمونها وبين عقيدتهم وأقوالهم وأفعالهم، وما دام الأمر كذلك فغاية القول أن التصوف منهج دخيل على الإسلام من خلال أعدائه. وفيما يلي توضيح لرأينا السابق.

التصوف في ميزان المفهوم الديني:

يقرر الشاطبي[1] إن المسلمين لملزمون أن يؤمنوا بأن الله لم يترك خيرا لأمة محمد صلى الله عليه وسلم إلا وقد بينه لرسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا شرا إلا وقد نبهه عليه ، ثم رسول الله ﷺ لم يكتم بيانه ، ولم يقصّر في تبليغه إلى الناس ، فأخبر الخلق بكل ما أخبر عن الله عز وجل لصلاحهم وفلاحهم ، ولم يخصّ شخصا دون شخص { وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ} (التكوير، ٢٤).

وكان مأمورا من الله بأن يبلغ كل ما نزل إليه ، قال تعالى : {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } (المائدة، ٦٧).

وكما أن المسلمين مطالبون أيضا أن يؤمنوا بأن الدين قد كمل في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يتوفه الله إلا بعد إتمام الإسلام { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا} (المائدة، ٣).

ومن يعتقد أن شيئا من الدين لو صغيرا بقي ولم ينزله الله على نبيه ، أو لم يبينه صلوات الله وسلامه عليه فإنه لا يؤمن بكمال الدين على رسوله ﷺ ، ولا تمام الإسلام في حياته ، لأنه بدون هذا ينقص الدين ولا يكمل ، وهذا معارض لقول الله عز وجل ، ومناف لختم نبوة محمد صلوات الله عليه وسلامه عليه .

ويتضح بذلك جليا أنه لا بد من الاعتقاد أن كل شيء لا يوجد في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فليس من الدين - وهو محدث وبدعة وضلالة ، وهذا هو الصحيح الثابت عن الله وعن رسوله – أما اعتقاد أنه من الدين وأن الدين لم يكمل بعد، فهذا هو عين الكفر والضلالة ، وقائله ليس من المؤمنين والمسلمين بالاتفاق ، فلا بد من أحد الأمرين ، إما هذا

(١) ابراهيم بن موسى الشاطبي، الاعتصام، مصر، مطبعة السعادة، د.ت، ص ص٤٨-٥١.

أو ذلك ، ولا يمكن الجمع بينهما { لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ }(الأنفال، ٤٢). و { هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } (التغابن ٢).

ومن هذا المنظور والرؤية نرى التصوف ، وننظر في الصوفية ، ونبحث في وقواعده وأصوله ونحقق أسسه ومبادئه ، ومناهجه ومشاربه ، هل لها أصل في القرآن والسنة ، أو سند في خيار خلق الله أصحاب رسول الله الذين هم أولياء الله الحقيقيون الأولون من أمة محمد ، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

{ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ } (الأنفال ٧٤).

و { الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢) }(التوبة ٢٠، ٢١ ، ٢٢).

و { فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } (الأعراف ١٥٧).

فإن كان كذلك فعلى المؤمنين كافة الإقرار والتسليم ، والتمسك والالتزام ، وليس لهم الخيار في الترك أو القبول ، { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا } (الأحزاب ٣٦) .

وأيضا { فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا } (النساء ٦٥) .

وشمل قول الله عز وجل في الآية القرآنية الأخرى أصحاب نبيه ﷺ لكونهم قدوة متبعون بعد الله ورسوله حيث قال :

{ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً } (النساء، ١١٥).

وثبت أن النبي ﷺ لم يمت حتى أتى ببيان جميع ما يحتاج إليه في أمر الدين والدنيا وهذا لا مخالف عليه من أهل السنة .

فإذا كان كذلك ، فالمبتدع إنما محصول قوله بلسان حاله أو مقاله : إن الشريعة لم تتم ، وأنه بقي منها أشياء يجب أو يستحب استدراكها ، لأنه لو كان معتقدا لكمالها وتمامها من كل وجه ، لم يبتدع ولا استدرك عليها . وقائل هذا ضال عن الصراط المستقيم .

كما أن المبتدع معاند للشرع ومشاقٌ له ، لأن الشارع قد عين المطلب العبد طرقاً خاصة على وجوه خاصة ، وقصر الخلق عليها بالأمر والنهي والوعد والوعيد وأخبر أن الخير فيها ، وأن الشر في تعدِّيها – إلى غير ذلك ، لأن الله يعلم ونحن لا نعلم ، وأنه إنما أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين . فالمبتدع رادٌ لهذا كله ، فإنه يزعم أن ثمّ طرقا أخر ، ليس ما حصره الشارع بمحصور ، ولا ماعينه بمتعين ، كأن الشارع يعلم ، ونحن أيضا نعلم . بل ربما يفهم من استدراكه الطرق على الشارع ، أنه علم ما لم يعلمه الشارع .

وكذلك فالمبتدع قد نزل نفسه منزلة المضاهي للشارع ، لأن الشارع وضع الشرائع وألزم الخلق الجري على سنتها ، وصار هو المنفرد بذلك ، لأنه حكم بين الخلق فيما كانوا فيه يختلفون . وإلا فلو كان التشريع من مدركات الخلق لم تنزل الشرائع ، ولم يبق الخلاف بين الناس . ولا احتيج إلى بعث الرسل عليهم السلام .

هذا الذي ابتدع في دين الله قد صير نفسه نظيرا ومضاهيا ، حيث شرع مع الشارع ، وفتح للاختلاف باباً ، ورد قصد الشارع في الانفراد بالتشريع وكفى بذلك .

الممارسات الصوفية في المجتمع:

كان للصوفية ظهور واضح في بعض المجتمعات الإسلامية منذ نشأتها وحتى الآن والمتأمل لأحوال الصوفية في كل زمان ومكان يجد أنهم قد جاءوا ببدع وضلالات انتشرت بين ربوع المجتمعات الإسلامية وفي بلدانها أدت إلى إفساد الفكر والعقيدة والثقافة الإسلامية الصحيحة ، ويعرض البحث لبعض الممارسات الاجتماعية النابعة عن بعض التصرفات غير الشرعية في المجتمع وذلك على النحو التالي:

١. اتخاذ المريد لشيخه: أول ما يجب على مريد الطريق الصوفي أن يتخذ شيخاً له ليدله على الطريق. يقول عبدالكريم القشيري "ثم يجب على المريد أن يتأدب بشيخ فإن لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان"(١) وهذا النص قد كتبه سنة ٣٨٧هـ وهو يدلك على أن قضية وجوب اتخاذ الشيخ قضية قديمة، واتخاذ الشيخ قد تفسر بأن لها سنداً من الكتاب والسنة في أن الرسول علم أصحابه والأصحاب علموا التابعين وهكذا، ولكن هذا استدلال من لا يعلم ماذا يعني الشيخ في الطريق الصوفي! إن الشيخ يعني شيئاً آخر تماماً كما ستأتي مواصفات الشيخ والشروط والآداب التي يجب مراعاتها معه.

"ويقبح بالمريد أن ينتسب إلى مذهب من مذاهب من ليس من هذه الطريقة وليس انتساب الصوفي إلى مذهب من مذاهب المختلفين سوى طريقة الصوفية إلا نتيجة جهلهم بمذاهب أهل هذه الطريقة فإن هؤلاء حججهم في مسائلهم أظهر من حجج كل أحد وقواعد مذاهبهم أقوى من قواعد كل مذهب والناس إما أصحاب النقل والأثر وإما أرباب العقل والفكر وشيوخ هذه الطائفة ارتقوا عن هذه الجملة فالذي للناس غيب فهو لهم ظهور، والذي للخلق من المعارف ومقصود فلهم من الحق سبحانه موجود فهم من أهل الوصال (أي مع الله في زعمه) والناس أهل الاستدلال وهم كما قال القائل:

ليلي بوجهك مشرق وظلامه في الناس ساري

(١) ابو القاسم القشيري، الرسالة القشيرية، مرجع سابق، ص١٨١.

فالناس في صدف الظلام ونحن في ضوء النهار"[1]

وقد وضع المتصوفة آداباً أوجبوها على المريد والسالك في الطريق الصوفي وهذه أهم هذه الآداب نقول تجاوزاً آداب وإنما هي في الحقيقة جهل وانحلال وعبودية وإذلال: فيقول القشيري في بيان ما يجب على المريد: "وأن لا يخالف شيخه في كل ما يشير عليه لأن الخلاف للمريد في ابتداء حاله دليل على جميع عمره"(٢).

"واعلم وفقك الله أن الولي المفتوح عليه يعرف الحق والصواب ولا يتقيد بمذهب من المذاهب. ولو تعطلت المذاهب بأسرها لقدر على إحياء الشريعة وكيف لا وهو الذي لا يغيب عنه النبي ﷺ طرفة عين!! ولا يخرج عن مشاهدة الحق ﷻ في أحكامه التكليفية وغيرها وإذا كان كذلك فهو حجة على غيره وليس غيره حجة عليه لأنه أقرب إلى الحق من غير المفتوح عليه وحينئذ فكيف يسوغ الإنكار على من هذه صفته ويقال إنه خالف مذهب فلان في كذا، إذا سمعت هذا فمن أراد أن ينكر على الولي المفتوح عليه لا يخلو إما أن يكون جاهلاً بالشريعة كما هو الواقع غالباً من أهل الإنكار وهذا لا يليق به الإنكار والأعمى لا ينكر على البصير أبداً"(٣)

وهذه الأقوال يقصد بها بالطبع إماتة القلب واستسلامه للدواهي والمصائب التي سيتلقاها المريد في طريقه الصوفي.

أما من الأفعال فانظر كيف أن المريد (الصادق) أعطى ماله كله لشيخ يقيم على الزنا والخمر (وهو في غفلة من ذلك.. عجباً).. وكيف يقوم المريد الصادق بخدمة هذا الشيخ الزنديق الفاسق وأصبح مجرد فلاح أو مزارع في بستانه يخدم الفاجرات ويقدم الخمور، ويهيء المزرعة للشيخ الأستاذ.. وكانت المكافأة أن مات شيخ آخر معه السر فاختار ذلك

(١) ابو القاسم القشيري، الرسالة القشيرية، مرجع سابق، ص١٨٠.

(٢) المرجع السابق، ص١٨٢.

(٣) احمد بن مبارك ، الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز الدباغ، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٣، ٢٠٠٢، ص١٩٢.

المريد البعيد واتصل بروح وأعطاه السر.. ويستطرد أحمد بن مبارك هذا أيضاً فيقول:

"وسمعت من غير الشيخ ﷺ أن بعض الأكابر كان له عدة أصحاب وكان لا يتخيل النجابة إلا من واحد منهم فأراد أن يختبرهم ففروا بجملتهم سوى ذلك الواحد وذلك أنه تركهم على باب خلوته فأظهر لهم صورة امرأة فدخلت الخلوة فقام الشيخ فدخل معها فأيقنوا أن الشيخ اشتغل معها بالفاحشة فتفرقوا كلهم وخسرت نيتهم إلا ذلك الواحد فإنه ذهب وأتى بالماء وجعل يسخنه يقصد أن يغتسل به الشيخ فخرج عليه الشيخ فقال: ما الذي تفعل؟ فقال: رأيت المرأة دخلت فقلت لعلك بحاجة إلى غسل فسخنت لك الماء. فقال له الشيخ: وتتبعني بعد أن رأيتني على المعصية. فقال: ولم لا أتبعك والمعصية لا تستحيل عليك، وإنما تستحيل في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولم أخالطك على أنك نبي لا تعصي وإنما خالطتك على أنك بشر وأنك أعرف مني بالطريق ومعرفتك بالطريق باقية فيك والوصف الذي عرفتك عليه لم يزل فلم تتبدل لي نية ولا يتحرك لي خاطر. فقال له الشيخ: يا ولدي تلك الدنيا تصورت بصورة امرأة وأنا فعلت ذلك عمداً لينقطع عني أولئك القوم. فادخل يا ولدي وفقك الله معي إلى الخلوة فهل ترى امرأة فيها فدخل فلم يجد امرأة فازداد محبة على محبته والله الموفق"(١) .

٢. الذكر: لم يحظ نمط من أنماط العبادة بعد أداء الفروض بالعناية الفائقة مثل ما حظي به الذكر من قبل الطرق الصوفية، فالذكر لديهم ركن أساسي قوي في طريق الحق سبحانه وتعالى، بل هو الأساس في هذا الطريق ولا يصل أحد إلى الله إلا بدوام الذكر، فبداية الطريق تتمثل في تزكية النفس وتطهير القلب، وهدف الطريق تحقيق الحب الإلهي والوصول إلى المعرفة، وكل ذلك لا يتأتى إلا بدوام الذكر(٢)، فالذكر ضرورة ليس فقط في بداية الطريق وإنما في جميع مراحله، وقد

(١) احمد بن مبارك ، الإبريز من كلام سيدى عبد العزيز الدباغ، مرجع سابق، ص١٨٨.
(٢) ابو القاسم القشيري، الرسالة القشيرية، مرجع سابق، ص ٢٢١.

أجمع مشايخ الطريق أنه ليس للمريد دواء أسرع في جلاء قلبه من مداومة الذكر، كما ذكر د/ عبد الحليم محمود أن المريد لن يترقى إلا بالذكر لأنه الركن الأساسي في طريق القوم(١).

لكن الذكر عند الصوفية يختلف ويتعدد على حسب كل طريقة ، ولكي تكتمل حلقة السيطرة على المريدين، فقد وضع شيوخ الصوفية للمريدين أوراداً وأذكاراً تختلف من طريقة لأخرى، وأضفوا عليها هالة من القدسية، وهددوا من تخلف عنها بالحرمان من المدد، وذلك حتى يظل المريد حليف باطل وجليس إلحاد، وعبد تصوف.

فإذا رأيت يوماً حول أحد الأضرحة أو في موالد البدعة والضلالة، أو في معايد الأضرحة التي يسمونها مساجد، وفي كهوف الدراويش قوماً يتصايحون ويتمايلون تارة جهة اليمين، وتارة جهة اليسار حركات بادية الخبل، فأعلم أنك أمام حلقة من حلقات ما يسمونها الذكر الصوفي، وهي في الحقيقة لا تعدو أن تكون مرقصاً من مراقص الشيطان.

ومن نماذج الأذكار عن الصوفية:

ففي الطريقة الشاذلية: "يا خالق السبع سماوات ومن الأرض مثلهن، يتنزل الأمر بينهن، أشهد أنك على كل شيء قدير، وأنك قد أحطت بكل شيء علماً، أسألك بهذا الأمر الذي هو أصل الموجودات، وإليه المبدأ والمنتهى، وإليه غاية الغايات أن تسخر لنا هذا البحر، بحر الدنيا وما فيه، كما سخرت البحر لموسى، وسخرت النار لإبراهيم، وسخرت الجبال والحديد لداود، وسخرت الرياح والشياطين والجن لسليمان، وسخر لي كل بحر هو لك، وسخر لي كل جبل وسخر لي كل حديد، وسخر لي كل ريح، وسخر لي كل شيطان من الجن والإنس، وسخر لي نفسي، وسخر لي كل شيء، يا من بيده ملكوت كل شيء، وأيدني بالنصر المبين إنك على كل شيء قدير"(٢)

(١) عبد الحليم محمود: قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، القاهرة، دار المعارف، د.ت، ص ١١٠.

(٢) المرجع السابق، ص٣٧٥.

وكذلك في الطريقة الدسوقية: "اللهم إنه سرك الجامع الدال عليك وحجابك الأعظم القائم لك بين يديك اللهم ألحقني بنسبه وحققني بحسبه وعرفني إياه معرفة أسلم بها من موارد الجهل وأكرع بها من موارد الفضل واحملني على سبيله إلى حضرتك حملاً محفوفاً بنصرتك واقذف بي على الباطل فأدمغه وزج في بحار الأحدية وانشلني من أوحال التوحيد وأغرقني في عين بحر الوحدة حتى لا أرى ولا أسمع ولا أجد ولا أحس إلا بها واجعل الحجاب الأعظم حياة روحي وروحه سر حقيقتي وحقيقته جامع عوالمي بتحقيق الحق الأول يا أول يا آخر يا ظاهر، يا باطن اسمع ندائي بما سمعت به نداء عبدك زكريا وانصرني بك لك وأيدني بك لك واجمع بيني وبينك"(١)

وفي ضوء ذلك يمكن القول أنه يخطئ من يظن أن الصوفية أتباع للرسول ﷺ في هديه في الذكر حيث شرع لنا ﷺ أن نذكر الله سبحانه وتعالى بأذكار مخصوصة في أوقات معلومة، والنبي عندما أخبرنا ﷺ أن من قال كذا وكذا فله كذا وكذا من الأجر إنما يتكلم بالوحي لأن الأجر أمر غيبي يقدره الله ويعلمه، ولكن مشايخ الصوفية أراد كل منهم أن ينصب من نفسه مشرعاً لمجموعة من المريدين، وإلهاً يعبده الأتباع الجاهلون، وكان باب الأذكار هو الباب الذي دخل منه هؤلاء للتشريع للأتباع والمريدين فوضع كل منهم لأتباع طريقته منهجاً خاصاً بالذكر، وأذكاراً مخصوصة وكان لكل واحد منهم أن يضفي على ذكره الخاص هالة من التقديس، وأن يحاول جذب المريدين إليه بشتى الطرق والوسائل فمنهم من زعم أن ذكره الخاص قد أخذه من الرسول مناماً، ومنهم من ادعى أنه أخذه من الرسول يقظة، ومنهم من زعم أن الخضر الذي أوحى له بالذكر، ومنهم من تنازل فنسب ذكره إلى شيخ طريقة ميت، ومنهم من تنازل عن ذلك فأخبر أتباعه أنه جمع لهم هذا الذكر من آيات القرآن، وأحاديث الرسول وتأليفاته، وأنه مجرب وأن من فعله حصل له كذا وكذا من الخير. فقد فعله فلان فحصل له كذا وكذا، وفعله فلان فحصل له كذا وكذا..(٢)

---

(١) الحزب الكبير للدسوقي.

(٢) عبد الرحمن عبد الخالق، الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، مرجع سابق ، ص١٩٧.

ويضيف القاسم في رده فيقول:(١)

وذكرهم كله، موضوعه، وشكله، وزمانه، ومكانه، هو بدعة كله، غريب عن الإسلام كله، ومن الردود المفيدة عليه وعليهم، هو رد الإمام النووي رحمه الله.

لقد اتصل الإمام النووي في أول وصوله إلى دمشق، وهو صغير، بالمتصوفة، وسار في طريقهم، وعندما اتسعت معارفه وفهم الإسلام، ترك الصوفية بدون ضجيج، ورد عليهم بكتابين:

١- رياض الصالحين، يبين فيه بالنصوص الصحيحة (إلا قليلاً منها) طريق الصلاح، وحيث يتبين طريق الصلاح، فكل الطرق من دونه ضلال.

٢- الأذكار: يبين فيه الأذكار الإسلامية، نصوصها، وأوقاتها، وأماكنها، كل ذلك بأسانيد أكثرها صحيح، وإذ يتبين ذلك، يتبين أن الذكر الصوفي الذي يستعمله السالكون إلى الجذبة، ليس من أذكار الإسلام.

- من جهة ثانية:

كل عبادة في الإسلام لها شروط وأركان.

ويوجد شرط مشترك لكل العبادات الإسلامية (مر معنا في بحث البدعة)، وهو: (كل العبادات باطلة إلا ما ورد به نص)، وبصيغة أخرى: (لا عبادة بدون نص). والذكر عبادة، فهو يحتاج إلى النص، وإلا فلا يكون عبادة.

وذكر الصوفية من حيث الشكل واللفظ إذا كان بالاسم المفرد أو (بما شئت من الأذكار) الواردة آنفاً، لا نص فيه. والنصوص التي يقدمونها، إنما يلفقونها بالتأويل والترقيع، إذن، فهو ليس عبادة.

(١) محمود عبد الرؤوف القاسم، الكشف عن حقيقة الصوفية لأول مرة في التاريخ ، بيروت، دار الصحابة، ١٤٠٨ه، ص ص٢٤٨-٢٤٩.

كما أن للذكر في الإسلام أركاناً: نجدها في الآية الكريمة: ((وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ)) [الأعراف:٢٠٥].

يهمنا في بحثنا هنا قوله سبحانه: ((فِي نَفْسِكَ)) [الأعراف:٢٠٥]...((وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ)) [الأعراف:٢٠٥]، فعبارة ((فِي نَفْسِكَ)) [الأعراف:٢٠٥]، تعني ألا تسمع نفسك، وعبارة: ((وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ)) [الأعراف:٢٠٥]، تعني ألا يسمعك جارك؛ لأن الجهر هو ما يستطيع سماعه الجار.

إذن، فيجوز في الذكر أن يُسمِع الإنسان نفسَه وأن لا يُسمعها.

وأما الجهر، فمنهي عنه بأكثر من آية وأكثر من حديث.

مع ملحوظة أن هناك حالات نص عليها الشارع، يجب فيها رفع الصوت بالذكر أو يجوز، كما في التلبية بالحج، وقبل صلاة العيدين، وفي التعليم، والحالة العفوية، ولتذكير الغافلين (حيث يجهر بعبارة الذكر مرة أو مرتين فقط)، وليس تفصيل هذه الأمور داخلاً في موضوعنا.

وكل محاولة أو مراوغة لاختراق الحدود التي رسمها الشارع من أجل التوسع بمدلول النص لتبرير الأساليب المبتدعة، هي محاولة باطلة، وهي بدعة وهي ضلالة، ((وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ)) [الطلاق:١].

وتعرف الحدود الشرعية من النص، أو من فعل الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن فعل أصحابه. والأذكار التي يستعملها الصوفية في الخلوة أو السياحة وفي الحضرة وفي مجلس الذكر أو مجلس الصلاة على النبي أو بعد الانتهاء من الصلاة، كلها فاقدة لشرط وركن معاً، أو لأحدهما على الأقل، لذلك فهي باطلة، وهي بدعة، وهي ضلالة.

- هذا إن كان الذكر بالأسماء الحسنى أو بعبارات الثناء على الله.

أما إن كان بغيرهما مما يقرره كهانهم من أسماء حجارة أو أوثان أو قبور أو غيرها فهي واضحة الزندقة بينة الكفر، وهي من الوثنية التي جاء الإسلام ليحاربها باعتبارها المصدر الرئيسي لكل الشرور، وهي السحر وهي الكهانة.

٣. الحضرة: أرجع أهل الطرق الصوفية تسميتهم للذكر باسم الحضرة إلى المثول في حضرة الله سبحانه وتعالى اقتداءً بحضرة النبي (ﷺ) وكذلك ترجع التسمية إلى محاولة تخلص المريد أو المتصوف من العالم الدنيوي حتى يتم له الحضور مع الله عز وعلا، ولذلك يفضل تسمية هذا الذكر الجماعي باسم الحضرة عندهم.

والحضرة من أهم الممارسات الجماعية لدى الصوفية وأكثرها تأثيراً في الرّبط بين أفراد الجماعة، وتوثيق علاقة المحبة بينهم، بالإضافة إلى دورها الفعال في التأثير على كل فرد على حدة إذ ترتبط بأسماء الله الحسنى، وبكل ما يتصل به من تسبيح وتعظيم، فهي جلاء للقلوب وتصفية للنفوس، وضرورية للفرد بنمطيها الفرد والجماعي.

وتتمثل الواجبات الأساسية للدخول في الحضرة في الطهارة من الحدث الأكبر، والطهارة من الحدث الأصغر، أما ماعدا ذلك فلا يوجد شرط لدخول الحضرة، بل يمكن لأي غريب دخولها دون أي قيود، فالحضرة حضرة الله ولا يملك أحد فيها شيئًا على الإطلاق، وهي تقام في المساجد المختلفة تبعًا لمكان السكن والعمل لكل مريد مما يفسح المجال لمشاركة أي فرد خارج الجماعة أو الطريقة التي تقيمها بالدخول فيها.

ويتخذ نظام الجلوس في الحضرة شكل دائرة مع مراعاة جلوس المنشدين بجوار بعضهم البعض، وللإنشاد دور كبير في التأثير في قلوب المريدين، وتنشيط أرواحهم حتى عبروا عن أهميته قائلين : " إذا اعتبرنا الذكر روح التصوف فالإنشاد روح الذكر"(١) .

(١) عرفة عبده على: موالد مصر المحروسة بين الماضي والحاضر، القاهرة. عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، ١٩٩٥م، ص ص٢٩-٣٢.

وبعد انتهاء الحضرة توزع ما يسمى بالنفحة؛ وهي عبارة عن هدية إلهية تبدأ من مجرد الماء أو العطر أو الشاي أو الفاكهة، وفي الغالب تكون النفحة عبارة عن طعام غالبًا ما يكون فتة وأرز باللبن وغيرها من المأكولات، كل حسب قدرته وإمكانياته، ونوع المناسبة التي دعا من أجلها إخوانه(١).

ويوجد هناك بعض الأدوار التي يلعبها بعض الأفراد من الطريقة عند إقامة الحضرة، مثل :

١- دور الشيخ أو الخليفة.

٢- مقدم أول ومقدم ثان، وهما يقومان بمهام الشيخ في غيابه.

٣- مقدم إنشاد أول وثان وثالث.

٤- مسئول النفحة.

٥- مسئول الماء .

وكذلك الحضرة في المجتمع الصوفي تتعلق بالسماع والتغني بالأشعار مع دق الطبول وهذا يقصد به الصوفية عبادة الله تعالى، ويتضح تأثر الصوفية به الا ان كثيرا من الذين بحثوا في هذا الجانب يؤكدون على ان الصوفية يتأثرون بالسماع من خلال الألحان والأشعار والطبول أكثر من تأثرهم بالقرآن يقول الشعراني: "وكان اذا سمع القرآن لا تقطر له دمعة، واذا سمع شعرا قامت قيامته"..

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية "ولو كان هذا ـ يقصد سماع الاشعارـ وضرب الدفوف كعبادة ـ مما يؤمر به ويستحب وتصلح به القلوب للمعبود لكان ذلك مما دلت الأدلة الشرعية عليه" ويضيف "انما

(١) مصطلح تستخدمه الطرق الصوفية على كل ما يصيب المريد، ويعتقدون في كونه خيراً له استناداً إلى القول: " ما من شوكة يشاكها المرء أو عثرة قدم أو اختلاج عرق إلا بذنب، ويعفو عن كثير "، فيقول المريدون بعضهم لبعض : نفحت بكذا

عبادة المسلمين الركوع والسجود اما العبادة بالرقص وسماع الاغاني بدعة يهودية تسربت الى المنتسبين الى الاسلام"(١).

ويذكر القاسم(٢) في الرد على ظاهرة الحضرة لدى الصوفية فيقرر أن صفة الحضرة عندهم تكون: جالسة صامتة، أو جالسة صائتة، أو راقصة (بنقص أو بدون نقص).

١- الجالسة الصامتة:

في الرد عليها يكفي حكم عبد الله بن مسعود، الذي قال فيه رسول الله ﷺ (كما يرويه الحافظ الذهبي في التذكرة): {خذوا عهدكم عن ابن أم عبد}.

نجد حكم عبد الله بن مسعود هذا في (سنن الدارمي):

...عن عمر بن يحيى قال: سمعت أبي يحدث عن أبيه، قال: [[كنا نجلس على باب عبد الله بن مسعود قبل صلاة الغداة (أي: الفجر)، فإذا خرج مشينا معه إلى المسجد، فجاءنا أبو موسى الأشعري فقال: أخرج عليكم أبو عبد الرحمن بعد؟ قلنا: لا، فجلس معنا حتى خرج، فلما خرج قمنا إليه جميعاً، فقال: يا أبا عبد الرحمن إني رأيت في المسجد آنفاً أمراً أنكرته، ولم أر والحمد لله إلا خيراً. قال: فما هو؟ قال: إن عشت فستراه.. رأيت في المسجد قوماً حلقاً جلوساً ينتظرون الصلاة في كل حلقة رجل، وفي أيديهم حصى، فيقول: كبروا مائة مرة، فيكبرون مائة، فيقول: هللوا مائة مرة، فيهللون مائة، فيقول: سبحوا مائة مرة، فيسبحون مائة. قال: فماذا قلت لهم؟ قال: ما قلت لهم شيئاً انتظار رأيك أو انتظار أمرك، قال: أفلا أمرتهم أن يعدوا سيئاتهم وضمنت لهم أن لا يضيع من حسناتهم شيء. ثم مضى ومضينا معه حتى أتى حلقة من تلك الحلق، فوقف عليهم فقال: ما هذا الذي أراكم تصنعون؟ قالوا: يا أبا عبد الرحمن، حصى نعد به

(١) أحمد بن تيمية، الصفدية، مرجع سابق

(١) محمود عبد الرؤوف القاسم، الكشف عن حقيقة الصوفية لأول مرة في التاريخ ، مرجع سابق، ص ص٤٥٠-٤٥١.

التكبير والتهليل والتسبيح والتحميد، قال: فعدوا سيئاتكم، فأنا ضامن أن لا يضيع من حسناتكم شيء، ويحكم يا أمة محمد ما أسرع هلكتكم، هؤلاء أصحابه متوافرون، وهذه ثيابه لم تبل، وآنيته لم تكسر، والذي نفسي بيده، إنكم لعلى ملة هي أهدى من ملة محمد أو مفتتحو باب ضلالة. قالوا: والله يا أبا عبد الرحمن ما أردنا إلا الخير. قال: وكم من مريد للخير لن يصيبه، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثنا أن قوماً يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، وأيم الله، لا أدري، لعل أكثرهم منكم...]].

- الرجاء ملحوظة أن الجلسة النقشبندية هي مثل هذه الجلسة.

٢- الحضرة الجالسة الصائتة:

في الرد عليها نذكر ما يلي:

- الآية الكريمة: ((وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ...)) [الأعراف:٢٠٥]، وهؤلاء يجهرون بذكرهم، كما يخلو ذكرهم من التضرع والخيفة.

- الحضرة بجميع أنواعها، ومثلها هذه، بدعة تنطبق عليها كل الأحاديث الواردة في البدعة، والتي رأيناها قبل قليل.

- حديث ابن مسعود السابق هو رد عليها كما هو رد على الجالسة الصامتة.

- قول حذيفة بن اليمان: [[كل عبادة لم يتعبدها أصحاب رسول الله فلا تعبدوها]]، رد عليها وعليهم.

وبالتالي، هذه الحضرة (الجالسة الصائتة) هي مثل غيرها، بدعة، فهي مردودة عليهم.

٣- الحضرة الراقصة (وكلها صائتة):

إن جميع الردود على البدعة وعلى أساليبهم في الذكر، وعلى الجالسة الصامتة، وعلى الجالسة الصائتة، هي ردود على الحضرة الراقصة، يضاف إليها:

- هي نفس صلاة اليهود!

جاء في (المزمور:١٤٩) (عدد:٣): (ليسبحوا اسمه برقص، بدف وعود، ليرنموا له..).

وفي (المزمور: ١٥٠): (سبحوه بدف ورقص، سبحوه بأوتار ومزمار، سبحوه بصنوج التصويت، سبحوه بصنوج الهتاف...).

- وثنيو إفريقيا السوداء (الفيتيشيون) عباداتهم كلها رقص وسماع.

- الهندوس، صلاتهم لأصنامهم مثل الحضرة الراقصة، يتوسطهم الكاهن أمام الصنم، يرقصون ويهزجون، أي: إن صلاتهم هي رقص وسماع وقرع أجراس.

وخلاصة القول فالحضرة الصوفية بجميع أشكالها، بدعة، ونقض للآيات والأحاديث، وتشبه كامل بالطقوس اليهودية والوثنية، (فيتيشية وهندوسية وجينية وطاوية...).

- أما كونها بدعة، فهي ضلالة، وكل ضلالة في النار.

- وأما كونها نقضاً للآيات والأحاديث، فهي كفر وزندقة وردة.

- وأما كونها تشبه الطقوس الوثنية واليهودية، فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول: {من تشبه بقوم فهو منهم}.

٤. الموالد: و إن مما اهتمت به الصوفية منذ قرون إقامة الموالد التي لم يعرفها السلف الصالح، ورغم ما يدعيه أربابها من محاسن ، فقد كان لها الكثير من المساوئ على عقيدة المجتمع وثقافته وترتب عليها كذلك الكثير من المفاسد الأخلاقية والاجتماعية ، مما دفع الاستعمار

ووكلاؤه وكل عدو متربص بنبع الاسلام الصافي إلى أن يحرص على تشجيعها ، بل يشارك رموز الصوفية في حضورها.(١)

ويتفاوت انتشار هذه الموالد بين الدول والمجتمعات الإسلامية، وتحظى مصر بنصيب الأسد من الأضرحة والموالد، خاصة مع وجود موالد للنصارى يحضرها بعض عوام المسلمين، كما يوجد مولد لليهود اسمه مولد "أبي حصيرة" في محافظة البحيرة شمال مصر. ولا تكاد تخلو مدينة مصرية من عدة أضرحة تقام حولها الموالد السنوية. ومن أشهر هذه الموالد: الحسين، والرفاعي، والبدوي، والسيدة زينب، والقناوي.

وظاهرة الاحتفال بالموالد معروفة من العصور السابقة على الإسلام؛ فكان الفراعنة واليونان يحتفلون بالآلهة، ويجعلون عيداً لظهورها، ثم انتقل ذلك إلى النصرانية فكانوا يحتفلون بالموالد؛ مثل: ميلاد المسيح عليه السلام، ثم جاء بعض المنتسبين إلى الإسلام فتشبهوا باحتفالات النصارى وجعلوا احتفالاً بمولد النبي ﷺ؛ وكان أول من ابتدع الموالد وبني المزارات وأحدث القباب على القبور في مصر هم العبيديون أصحاب الدولة اليهودية الباطنية الفاسدة المفسدة (دولة العبيديون) المسماة كذباً وزوراً وتغريراً "الفاطميين" وهم براء من فاطمة الزهراء-رضي الله عنها-وهي بريئة منهم. "(١).

ولا تخلو الموالد اليوم من البدع والمنكرات والمخالفات الشرعية. ومن أهم المظاهر الشركية فيها: دعاء صاحب القبر فيما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل، واعتقاد أنه يجيب الحاجات ويكشف الكربات؛ وهذا من الشرك الأكبر الذي ينافي التوحيد، والعكوف على القبور والذبح

(١) خالد آل عقدة، الاحتفال بالموالد شبهات وردود، مجلة البيان، العدد ٢٥٧، لندن، محرم/يناير ٢٠٠٩، ص٣٨.

(٢) فاروق أحمد مصطفى، الموالد .. دراسة للعادات والتقاليد الشعبية في مصر. سلسة دراسات في المجتمع المصري، الاسكندرية، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٠، ص١٥.

لها من دون الله والنذر لأصحابها، وقد قال رسول الله ﷺ: "لعن الله من ذبح لغير الله"(١).

ولا تقتصر البدع والخرافات علي هذه الموالد ولكنها تشمل الأضرحة والزوايا وأماكن تسمى بأنها "مبروكة" يشد إليها الجهلة الرحال للبحث عن شفاء المريض بواسطة الولي، والطريف - إمعانا في النصب - أن بعض الأضرحة تعمل بنظام التخصص الطبي.. فبعضها مخصص لعلاج أمراض معينة لا غيرها مثل ضريح الشيخ أو الولي "فلان" لعلاج العظام وآخر لعلاج العقم وهكذا.. فهناك ضريح باسم "راكب الحجر" في شمال القاهرة بجوار بئر مخصص لعلاج العقم فقط، حيث يطلب من النساء الدوران حوله سبع مرات لشفائهن من العقم بخلافات طلبات أخرى شاذة.

ومن المظاهر البدعية للموالد في المجتمع : الحرص على الاجتماع في الموالد ودعوة الناس في أقطار الأرض لشهودها، وشد الرحال إليها وإلى القبور. ومن البدع أيضًا: رفع قبور الموتى، وبناء المساجد عليها، وبناء القباب، وتعيين السدنة، وما يكون في المولد من اختلاط بين الرجال والنساء، وامتلائها بالملاهي المحرمة، وما يفعله بعض الجهال في بعض البلاد من اللهو واللعب المحرم، وما يتبع ذلك من السهر في معصية الله والاستهانة بمحارم الله، والتهاون بالصلوات وتضييع السنن الظاهر والباطنة.

كما ان المولد اصبح سوقا تجارية تعرض فيه البضائع والمأكولات ولوازم خدمة زوار أهل البيت، ويختلف المولد بحسب مكانه فمعظم الموالد في القري والريف تكون موجهة اساسا لتجارة المواشي والحيوانات والحبوب الزراعية أما في المدن فتكون مخصصة لتجارة السلع الأخري مثل الملابس والمأكولات والأجهزة وبعض المنتجات اليدوية التي يحضرها أهل الريف معهم.

(١) صحيح مسلم، كتاب الأضاحي.

وعلى أية حال فالاحتفال بالموالد إنما هو من البدع والضلالات المخالفة للسنة؛ حتى لو لم تصاحبها المنكرات؛ لأن رسول الله ﷺ لم يحتفل بمولده، ولم يحتفل الصحابة بمولده ﷺ ولا بموالد الصالحين، ولا اجتمعوا لها؛ ورسول الله ﷺ يقول: "من أحدث في أمرنا هاذ ما ليس منه فهو رد" ويقول ﷺ: "إياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة"، ويقول ﷺ: "اللهم لا تجعل قبري عيداً"، ويقول صلى الله عليه وسلم أيضًا: "لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلوا علي؛ فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم"(١).

٥. تقديس القبور والاضرحة: ان من ألوان تقديس الأموات والغلو فيهم ان يعتقد ـ وهذا ما يفعله المتصوفة ـ ان الميت وليا كان ام نبيا لابد ان يرجع الى الدنيا، وانه متى ما اراد ان يعود الى بيته عاد وكلم اهله وذويه، وتفقد اتباعه ومريديه، وربما اعطاهم اورادا الى غير ذلك مما يعبر عن عقيدة موغلة في الجهل بعيدة عن عقيدة الاسلام الصافية.

ومظاهر عقيدة الرجعة عند الصوفية تتمثل في اعتقادهم بامكان مقابلة الرسول بعد موته يقظة وانه ﷺ يحضر بعض اجتماعات الصوفية وانه مازال يعطي بعض المعارف والتشريعات لمن يشاء من العباد.

ويوغل المتصوفة كثيرا في تقديس الاموات وهذا يتضح من خلال تقديس المشاهد والبناء على القبور وتجصيصها واتخاذها مساجد، وقد تساهل المسلمون في ذلك كثيرا حتى نجد انها عمت كثيرا من بلاد المسلمين دون وعي بنتائج ذلك والتي من اهمها: ان تقديس المشاهد والبناء على القبور صار شائعا وكأنه معلم من معالم الدين الاسلامي، وان تقديسها ذريعة الى الشرك، حيث ادى البناء على القبور وتعليتها وتزيينها الى اتخاذها معابد وشرعت لها مناسك كمناسك الحج، كذلك فان تقديس المشاهد اساءة للاسلام عند من لاعلم به بتعاليمه.

(١) أخرجه أبو داود، وصححه الألباني (٥٧١/١).

لقد حول الصوفية الهدف من زيارة القبور فبدلا من الزيارة للعبرة والعظة وتذكر الآخرة عبدوها من دون الله وطافوا حولها وزخرفوها حولها وزخرفوها وشيدوها.

ويذكر جمال حاتم(١) أنه كما أطلقت الشيعة اسم "الأعتاب" على المقابر، أطلقت الصوفية اسم "الأضرحة" عليها أو "المقام" والزائر لهذه الأضرحة عند الصوفية سيجد صورة مصغرة لما يحدث عند مقامات الأئمة في النجف الأشرف وكربلاء والكاظمية في العراق.. فالشيعي إذا دخل إلى أعتاب أي إمام يبادر بالسجود على الأعتاب وإذا سألته عن سر سجوده يقول لك:

نحن أولى بالسجود من بني إسرائيل حيث أمرهم الله تعالى قائلا: {وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ..} (البقرة: ٥٨) ثم يقول لك: هل القرية أشرف من مقام الأئمة؟!

وكذلك الأمر عند الصوفي عندما يقبل ويتبرك بالضريح يقول لك: نحن أحق من مجنون ليلى الذي قبل الجدار.

وهناك تشابه واضح أيضاً بين الشيعة والصوفية في الاحتفال بيوم عاشوراء وهو العاشر من المحرم الذي صامه الرسول عندما قدم إلى المدينة وعلم أن اليهود يصومونه لنجاة موسى من فرعون فقال النبي:

نحن أحق بموسى منكم، فصامه وأمر بصيامه وقال إنه سيصوم في العام التالي التاسع والعاشر مخالفا لليهود ولكنه قبض ﷺ في العام التالي...

وقد زاد من اهتمام ذلك اليوم عند الشيعة قتل الإمام الحسين فيه ولا يخفى على أحد ما يقوم به الشيعة في ذلك اليوم من كل عام من

(١) جمال سعد حاتم ، انحرافات الصوفية بين الماضي والحاضر، مجلة التوحيد، مصر، السنة ٣٤، العدد ٤٠٠، ربيع الثاني ٢٠٠٥، ص٨.

مسيرات دموية يعاقبون أنفسهم ويضربون أجسادهم بالجنازير حتى تسيل دماؤهم.

وللأضرحة عند الصوفية مكانة لا تضاهيها مكانة أخرى ولم ولا وهي تمثل بمن دُفن فيها مركزا لإدارة الكون كما سيوضح في موضوع آخر من هذا الملف.

لقد قلب الصوفية الهدف من زيارة القبور رأسا على عقب فبدلا من الزيارة للاعتبار وتذكر الموت تجد الضريح وقد أحيط بسياج من ذهب وفضة وأضيئ بألوان من السراج الحديثة ومرتفعا عن الأرض -تعمدا لمخالفة أمر النبي -ويطوف الناس حوله ويقبلونه وبدلا من الدعاء للميت يطلبون الدعاء منه.

ولذلك لا عجب أن يهتم مشايخ الصوفية وهم أحياء ببناء أضرحتهم والإشراف عليها بأنفسهم حتى يضمنوا تحولهم إلى مناسك للعبادة بعد الموت!!

ويا ليت الأمر وقف عند هذا الحد في القبور والأضرحة.. بل إن هنالك تخصصا لكل صاحب ضريح فهناك ضريح الشيخ عز الرجال بطنطا.. ومشهور عنه شفاء الأمراض وخاصة أمراض الأطفال وهو بالمناسبة رجل مغربي يقام له مولد كل عام على غرار مولد السيد البدوي.

وهناك ضريح على الحامولي ومشهور عنه زواج العانس ولذلك تردد النساء الزائرات قولهن: "سيدي يا حامولي جوزني وأنا أجيب لك شمعة طولي". هل نعلق هذه التخاريف والتي تناقض أصل الإسلام؟!

«وهذا الفعل محاكاة لليهود والنصارى باتخاذ قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، حيث يقصدون العبادة عندها، وهو بعينه ما نهى عنه ﷺ، فأرباب الموالد لا يقصدون المشاهد والقبور إلا طلبًا للبركة أو الاستغاثة أو الدعاء، فيذبحون لها، ويطوفون بها، ويمرغون الخدود على أعتابها، وهذا الفعل محادة لله ورسوله ﷺ، مناف لكلمة التوحيد؛ لأن

العبادة لا تكون إلا لله عز وجل، ومن صرف نوعًا من أنواعها لغير الله، فقد وقع فيما يناقض «لا إله إلا الله».

وما يفعله أولئك نابع من عقيدة أن الأولياء لهم التأثير في الكون «كما يزعم الصوفية»، وأن الاحتفال بمولد الأولياء والعكوف على قبورهم من الدين وأنه قربة، فالذين لا يحتفلون بالأولياء ولا يزورون قبورهم ولا يقدمون النذور لهم محجوبون من رحمة الله وبركته، بل من لم يفعل هذه الموالد قد يسلب منه الإيمان، وتصيبه الأمراض والأسقام، بسبب امتناعه أو اعتراضه على حد زعمهم(١).

٦. الكرامات:

تعد الكرامة نوعاً من "الحق الإلهي" يمنحه الله عزّ وجلّ للصوفي دون غيره ، فهي إذاً لا تخضع لتطبيقات المقاييس الإنسانية كافة، سواء العقلية أو الأخلاقية أو الطبيعية أو المنطقية، لأن منبعها وحقيقتها تكمنان في الناحية الميتافيزيقية (الغيبية)، وَمِنْ ثَم لا يعتمد على النقد البشري في الدلالة على صحتها أو فسادها.

ومن ثمّ فالكرامة من الإلهامات واللطائف الإلهية التي يتحف بها الصوفي تثبيتاً وتصديقاً لحاله، ودلالة على وصوله إلى جوهر الكمال الروحي الحقيقي. ولهذا فالصوفي، من وجهة نظري، يدرك أتم الإدراك صدور الكرامة عنه، على الرغم من صدورها عنه بصورة عفوية لا إرادية أي من دون قصد مسبق عنه، للدلالة على تحقق الكرامة في حال الفناء، وفي حال السكر لا الصحو، وعندئذ يصبح الفناء والسكر حالتين توجبان بالضرورة لكل صاحب كرامة، كالبسطامي. الأمر الذي جعل البسطامي يربط بين حظوظ الصوفية في الكرامات وبين الأسماء الإلهية، الأول والآخر والظاهر والباطن على وجه الخصوص، جاعلاً لكل حظ اسماً إلهياً.

(١) صالح بن مقبل العصيمي التميمي، بدع القبور أنوعها وأحكامها، الرياض، دار الفضيلة، ط١، ٢٠٠٥، ص٣٢٥.

ولما كانت كرامات الصوفية وقائع ذات طبيعة خارقة، فهي لا تحدث إلا لأولئك المرتاضين من أرباب الخلوات، وهي تنضوي تحت اتجاهين أساسيين لا ثالث لهما يتمثلان: بالكرامات الروحية (الباطنة) والكرامات المادية (الظاهرة). على الرغم من كون أغلب الكرامات الصوفية هي كرامات مادية موضحة بوقائع مرئية ومحسوسة. ويعد البسطامي من المتصوفة الذين يجتمع في كراماته الجانبان الروحي والمادي معاً، إذ كانت تطوى له أكتاف الأرض، فكان يعبر المشرق والمغرب وكان يأتي مكة ما بين الأذان والإقامة. ولهذا يرى البسطامي نفسه متحققاً في مقام لا صفة له، وهو مقام من تجيئه الأشياء أو تخاطبه حيث كان.

وأتساءل: هل تتحقق الكرامة عن الصوفي في الزمان أو تعد من خوارق الزمان وبتعبير آخر، هل للكرامة زمان أو لا زمان لها؟ طالما كان تحقق الكرامة عن الصوفي في حال الفناء (السكر) من دون الصحو. فالاستنتاج يفرض نفسه هنا: وهو لا وجود للزمان أثناء تحقق الكرامة، أي أن الزمان يطوى ويمحى. إذ تعد الكرامة من خوارق الزمان وبدليل الأصل، أي الصوفي الفاني، حيث لا قدرة له على معرفة الزمان المستغرق من قبل الكرامة الصادرة عنه، وهي المتحققة له في حال الفناء (السكر)؟(١)

ومن نماذج الكرامات عند الصوفية نعرض لما نسب عن كرامات الرفاعي: فكان أشهر ما يعرف عنه زعم أتباعه أنه لما حج عام ٥٥٥هـ ووقف أمام قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، قال هذين البيتين:

في حالة البعد روحي كنت أرسلها تقبل الأرض عني وهي نائبتي

وهذه دولة الأشباح قد حضرت فامدد يمينك كي تحظى بها شفتي

(١) نظلة الجبوري، سلاطين المتصوفة في العشق والمعرفة، مرجع سابق، ص ص٦٠-٦١.

ويزعم أتباعه أن النبي خرج من قبره ومد له يده من بين حديد شباك القبر فقبلها الرفاعي.(١).

٢- وينسبون من كراماته أيضاً أنه إذا كان ألقى الدرس سمعه الأصم والسميع، والقريب والبعيد، وأن الله أحيا له الميت، وأقام له المقعدين، وقلب له الأعيان، وصرفه في الخلق(٢) ويذكرون كذلك أن الله أبرد لأتباعه النيران، وأزال لهم فاعلية السموم.. وألان لهم الحديد، وأذل لهم السباع والأفاعي، وأخضع لهم طغاة الجن، وصرفهم في العوالم، وأطلعهم على عجائب الأسرار.

٣- دعا الناس إليه وإلى طريقته بطرق شتى؛ من ذلك قوله: "إنكار العبد نعمة من موجبات السلب، أنا من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.. إن الله إذا وهب عبده نعمة ما استردها، شكر النعمة معرفة قدرها"(٣)

وقال أيضاً: ".. إن العبد إذا تمكن من الأحوال بلغ محل القرب من الله تعالى وصارت همته خارقة للسبع السماوات، وصارت الأرضون كالخلخال برجله، وصار صفة من صفات الحق جل وعلا، لا يعجزه شيء وصار الحق تعالى يرضى لرضاه ويسخط لسخطه، قال: ويدل لما قلناه ما ورد في بعض الكتب الإلهية يقول الله عز وجل (يا بني آدم أطيعوني أطعكم، واختاروني أختركم، وارضوا عني أرض عنكم وأحبوني أحبكم وراقبوني أراقبكم وأجعلكم تقولون لشيء كن فيكون، يا بني آدم من حصلت له حصل له كل شيء ومن فته فاته كل شيء)" (٤)

(١) محمد ابي الهدى الصيادي، الطريقة الرفاعية، ص١٣٣، متاح على الموقع: http://www.rifaieonline.com/index.php?page=22&topic=155

(٢) المرجع السابق، ص١٣٤.

(٣) احمد الرفاعي، البرهان المؤيد، مرجع سابق، ص٢٨.

(٤) عبد الوهاب الشعراني ، الطبقات الكبرى المسماه بلواقح الانوار في طبقات الاخيار، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٢، ص١٤٢.

والمتأمل لما سبق يرى أن الصوفية اختصوا أنفسهم بالكرامات دون غيرهم من الصالحين والاتقياء من أمة الاسلام، وما ذلك الا لهوى من أنفسهم الضالة ، حتى يكون لهم ذلك مبررا لممارسات الخاطئة التي يأتونها ، ليشبعوا بها رغبة خفية فيفسدوا بها عقائد الناس وثقافة المجتمع.

٧. الخلوة:

من المشاعر الخاصة بالطريقة الرفاعية أيضاً الخلوة الأسبوعية السنوية وتبدأ عندهم في اليوم الحادي عشر من المحرم كل عام، ومن شروطها أن لا يأكل المريد طعاماً أخذ من ذي روح، ويذكر المريد في اليوم الأول لا إله إلا الله بعدد معلوم واليوم الثاني الله الله، والثالث وهاب وهاب، والرابع حي حي والخامس مجيد مجيد.. والسادس معطي معطي.. والسابع قدوس قدوس، وكل ذلك بعدد معلوم، وكذلك أن يقول المريد بعد كل صلاة من صلوات هذا الأسبوع (اللهم صل على سيدنا محمد النبي الأمي الطاهر الزكي وعلى آله وصحبه وسلم) يقول ذلك مائة مرة، وزعموا أن لهذه الخلوة فتوحات محمدية، وعنايات أحمدية لا تحصى وأن من فعلها شاهد من البراهين العظيمة وكأن له شأن عظيم(١)

ولا يخف أن هذه الخلوة في هذا الوقت المخصوص بدعة ضلالة وكل بدعة في النار كما قال ﷺ وأنها تشريع جديد لم يأذن به الله ولا رسوله، وأن فيها مشابه لصيام النصارى الذين يصومون عن ذوات الأرواح، وأن فيها تقرباً من الرافضة حيث يخصص الحادي عشر من محرم من كل عام بذلك حيث تنتهي مشاعر الرافضة الخاصة ليدخل مشاعر الرفاعية ولعل ذلك السبب في قولهم إن الرفاعي تأتي منزلته بعد الأئمة الاثني عشر مباشرة(٢).

(١) محمد ابي الهدى الصيادي، الطريقة الرفاعية، مرجع سابق، ص١١٥.
(٢) المرجع السابق، ص١٢٧.

والخلوة ليست من العبادات الإسلامية، ولا خلوة في الإسلام، وهي بدعة محدثة بعد رسول الله ﷺ، وبعد أصحابه وتابعيهم وتابعي تابعيهم.

إنها بدعة محدثة في الإسلام، أما في الأمم الأخرى فهي قديمة قدم الكهانة(١).

من أساليب القوم في المغالطة والمخادعة، قولهم: إنهم يتأسون في الخلوة وتوابعها، بمحمد ﷺ؛ لأنه كان قبل الرسالة يختلي أياماً كثيرة في غار حراء.

هذه المغالطة، مثل غيرها، فيها جهل غبي، أو تجاهل ماكر؛ لأن الآية الكريمة تقول: ((لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ...)) [الأحزاب:٢١].

ولم يصبح محمدٌ (رسولَ الله) إلا بعد أن نزل عليه الوحي بالرسالة. أما قبلها فقد كان إنساناً كبقية الناس على الإطلاق، لا يمتاز عنهم إلا بأخلاقه الكريمة. يقول سبحانه: ((قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ)) [فصلت:٦]، وهذه الآية واضحة كل الوضوح، لا لبس فيها ولا غموض، بأن الفرق بينه ﷺ وبين بقية البشر، هو الوحي.

ويقول سبحانه: ((قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولاً)) [الإسراء:٩٣]. ويقول: ((قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ...)) [إبراهيم:١١]. ويقول ﷺ: {أنا فيما لم يوح إلي كأحدكم}. ونعود إلى آية التأسي، إنها تأمرنا أن تكون أسوتنا برسول الله (الذي ينزل عليه الوحي)؛ وذلك لأن (رسول الله) معصوم بالوحي؛ أما قبل الرسالة فلم يكن معصوماً؛ لأنه لم يكن يوحى إليه ﷺ.

(١) محمود عبد الرؤوف القاسم، الكشف عن حقيقة الصوفية لأول مرة في التاريخ ، مرجع سابق، ص٤٤١.

وفي ضوء ما سبق يمكن إجمال أهم الممارسات الاجتماعية والتي تنبع من التصرفات غير المشروعة التي ادخلها أدعياء التصوف والتي حذر منها الصوفية أنفسهم وفي مقدمتهم الإمام الغزالي رحمه الله :

١- حب الظهور. فالشيخ من هؤلاء قد لا يمشي إلا في حفل هائل من الخلق جمعهم بأساليبه وحيله. ويجعل على بابه الحجاب يأمرون الداخل بكيفية الجلوس والكلام بين يدي الشيخ ويقدرون له وقتا معينا لا يزيد عليه. وله بطانات وحاشيات من بعض المضطرين وذوي الحاجات. تؤلف لهم الروايات وتنشر عنهم كواذب الكرامات ويؤثرون في نفوس الجماهير بالأوهام والترهات ويدخلون على نفوسهم بما يسميه علماء النفس بالإيحاء والاستهواء.

٢- إقامة المواسم والموالد باختلاط الرجال والنساء وإنفاق الأموال على مزيد من الأنوار والمواكب "الكرنفالية" والرقص والشعوذة والبدع والإسراف في أسباب المفاخرة بغير سبب شرعي.

٣- الرقص في الذكر والاهتزاز يمنة ويسرة بلا وقار ولا أدب خصوصا إذا صاحبته الطبول والمزامير وتحريف أسماء الله بتمطيطها أو تقصيرها أو قطعها.

٤- النذور للأولياء وللصالحين والذبائح لهم. ففي صحيح مسلم عنه صلى الله عليه وسلم "ملعون من ذبح لغير الله". و"من ذبح لغير الله فقد أشرك".

٥- الرقية غير الشرعية بالأسماء المجهولة غير العربية باعتقاد تأثيرها أو بتمائم. قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه أحمد "من علق تميمة فلا تمم الله له". و"من علق تميمة فقد أشرك". ويلحق بهذا ما يفعله "المعزمون" مستحضرو الشياطين من الكلمات والألفاظ المصطنعة والبخور المنفرة والعبودية للجن.

٦- أعمال النصب والاحتيال. فقد استطاع كثير من الناس السيطرة على عقول العامة وأشباههم. فأباحوا لهم تقديسهم والسجود أمامهم والتذلل إليهم ودعائهم في النائبات لاعتقادهم أن الكون بأيدي هؤلاء الشيوخ وأن قضاء الله معلق على تصرفهم.

المراجع

إبراهيم بن موسى الشاطبي، الاعتصام، مصر، مطبعة السعادة، د.ت.

أبو القاسم القشيري، الرسالة القشيرية في علم التصوف، ج١، القاهرة، دار الشعب، ١٩٨٩.

أحمد ابن تيمية ، الصفدية ، ج١، تحقيق محمد رشاد سالم، القاهرة، مكتبة ابن تيمية، ٢٠٠٢.

أحمد الرفاعي، البرهان المؤيد، تحقيق: محمد عمر بحاوي، حلب ، المكتبة الادبية، ٢٠٠٩.

أحمد بن عجيبة الحسني، معراج التشوف إلى حقائق التصوف، الدار البيضاء ، مركز التراث الثقافي المغربي، د.ت.

احمد بن مبارك ، الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز الدباغ، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٣، ٢٠٠٢.

أحمد زروق الفاسي، قواعد التصوف، قاعدة ١٣، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ٢٠٠٥.

جمال سعد حاتم ، انحرافات الصوفية بين الماضي والحاضر، مجلة التوحيد، مصر، السنة ٣٤، العدد ٤٠٠، ربيع الثاني ٢٠٠٥.

حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، تحقيق: محمد شرف الدين، ج١، بيروت، دار إحياء التراث العربي ، د.ت.

حامد صقر، نور التحقيق في صحة أعمال الطريق، القاهرة، دار التأليف، ١٩٧٠م .

خالد آل عقدة، الاحتفال بالموالد شبهات وردود، مجلة البيان، العدد ٢٥٧، لندن، محرم/يناير ٢٠٠٩.

صالح الرقب، ومحمود الشوبكي، دراسات في التصوف والفلسفة الإسلامية، غزة، الجامعة الإسلامية، ط٢، ٢٠٠٨.

صالح بن مقبل العصيمي التميمي، بدع القبور أنوعها وأحكامها، الرياض، دار الفضيلة، ط١، ٢٠٠٥.

عبد الحليم محمود: قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، القاهرة، دار المعارف، د.ت.

عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق عبدالله الدرويش، دمشق، دار يعرب، د.ت.

عبد الرحمن عبد الخالق، الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، الكويت، مكتبة ابن تيمية، ط٣، ١٩٨٦.

عبد الوهاب الشعراني ، الطبقات الكبرى المسماه بلواقح الانوار في طبقات الاخيار، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٢.

عرفة عبده على: موالد مصر المحروسة بين الماضي والحاضر، القاهرة. عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، ١٩٩٥م.

فاروق أحمد مصطفى، الموالد .. دراسة للعادات والتقاليد الشعبية في مصر. سلسة دراسات في المجتمع المصري، الاسكندرية، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٠.

محمد العبْده، طارق عبد الحليم، الصوفية نشأتها وتطورها ، لندن، دار الأرقم، ط٤، ٢٠٠١.

محمود عبد الرؤوف القاسم، الكشف عن حقيقة الصوفية لأول مرة في التاريخ ، بيروت، دار الصحابة، ١٤٠٨ه.

نظلة احمد الجبوري، سلاطين المتصوفة في العشق والمعرفة، بغداد، دار المدى، ط١، ٢٠١٦.